



منذ سنوات قليلة، وعندما تصاعد الحديث عن خلافات داخل جماعة الإخوان المسلمين في مصر تجاه إحدى القضايا الداخلية، نفي القيادي عصام العريان إمكانية «حدوث تصدعات وانشقاقات وشروع في الجسد الإخواني»، وبرر ذلك بعدها أسباب كان أولها: «أن الإخوان ليست مجرد حزب سياسي أو قوة سياسية؛ بل هي أكبر من ذلك، فهي دعوة وفكرة ورسالة ربانية».

قد تساعد مثل هذه الآراء المتجردة في الجماعة على فهم الأزمة التي تعيشها مصر حالياً بسبب محاولة سيطرة الإخوان على جميع مؤسسات الدولة. وهي محاولة لا ندعى نحن حصولها فقط، وإنما يتحدث عنها وينتقدوها كثيرون من مؤيديهم، بل ومن أعضائهم من الداخل على مختلف المستويات.

فالضغط النفسي والفكري الذي يولد من القناعة بأن الجماعة هي «رسالة ربانية» لا يمكن أن يسمح لأصحابه بتقزيم دلالات مثل ذلك المعنى الشمولي واختزالها إلى رؤية واقعية كان يجب أن تفرضها كل المعطيات السياسية والاجتماعية والفكرية. قد يمكن لفرد متزن دينياً النظر إلى نفسه على أنه يعيش وفق رسالة ربانية. لكنه لا يقول لنفسه إنه هو بحد ذاته رسالة ربانية! هذا إذا امتلك حداً أدنى من العقلانية والتواضع. لكن المفارقة تظهر حين ننتقل من الفرد إلى المجموعة. ففي حين أن (الآن) الفردية لا تملك القدرة على ادعاء التماهي الشامل مع كلمة السماء، يمكن لـ (الآن) الجماعية أن تُعبر عن ذلك التماهي بلسان الحال وإن لم يكن بلسان المقال دائماً. نحن لا نتحدث هنا عن النيات وإنما عن شعورٍ راسخٍ في اللاوعي وفي أعماق الثقافة الشخصية لأننا الجماعية الإخوانية، وهو شعورٌ يمكن استقراره من ممارسات وأدبيات الجماعة على مدى تاريخها الطويل. فالغالبية لا تزال تعيش منذ عقود على فكرة طرحتها الإمام المؤسس مؤكدةً أن الجماعة هي «دعوة سلفية.. وهي حقيقة صوفية.. وهم هيئة سياسية.. وهم جماعة رياضية.. وهم رابطة علمية وثقافية.. وهم شركة اقتصادية.. كما أنهم فكرة اجتماعية..»!

كانت الثقاقة الإخوانية تحرص دائماً على الحركة في فضاءٍ واسع جداً لا تتضح فيه الحدود، ولا تنضبط في إطاره أهداف معينة يمكن قياسها بأي درجةٍ من الدقة. خاصةً حين يتعلق الأمر بحقلي السياسة وممارستها. وبسبب اضطهاد كثيرٍ من الحكومات للجماعة من جهة، وتعاطف الجماهير العربية مع من يتحدث باسم الإسلام من جهةٍ

آخرى، تبلور لديها تصورٌ بصوابية ثقافتها الخاصة، وتحديداً عند تنزيل تلك الثقافة على العمل السياسي.

من هنا يمكن تفسير ظاهرة الاستعجال لدى الإخوان ولدى الإسلاميين بشكلٍ عام فيما يتعلق بتحويل رصيدهم، حقيقةً كان أو مبالغًا فيه إلى قرارات وممارسة سياسية. ومن هنا، نفهم استعجالهم في مصر لـ(قطف) ثمار ذلك الرصيد دونما إدراكٍ لقدرتهم الحقيقة على التعامل مع المشكلات الهائلة التي تعاني منها بلادهم. وأكثر من هذا، طبيعة (المحرق) التي يسعون بأرجلهم إليها.

لا يتعلّق الأمر بقراءة الغيب، وإنما بقراءة منهجة تؤكّد عدّة أمور: يتمثل أولها: في استحالة قدرة أي فصيلٍ سياسي أو اجتماعي على أن يتعامل مع تلك المشكلات، وأن يجد لها الحلول نظرياً وعملياً في إطار نظام ديمقراطي.

قد يكون ممكناً لحزبٍ أو فئةً ادعاء القدرة على السيطرة وفرض ما يرون من سياسات في إطار نظام ديكاتوري كما كان عليه الحال قبل الثورة. ومن الطبيعي ألا تحل تلك السياسات المشكلات وألا يهتمّ المسيطرُون بالنتائج أصلًا.

لكن هذا لم يعد ممكناً في مرحلةٍ يفترض أن تتعدد فيها مصادر الرؤية والتحليل للمشكلات وحلولها، وأن تتعاضد فيها القدرات والجهود والإمكانات للتعامل معها. سيمًا وأن كثيراً من المعطيات تؤكّد افتقار الإسلاميين (الحركيين) المدعى للتفكير السياسي بكل ما فيه من مجالات معقدة ومتداخلة وكثيرة، وافتقارهم لكونهم بشرية مطلوبة في موقع لا حصر لها في الدولة بجميع مكوناتها، وتتطلب كثيراً من التدريب والإحاطة والأهلية النظرية والعملية. قد يكفي هنا التفكير في المفارقة الكبيرة بين ممارسة الإسلاميين في مصر وفي تونس في كثيرٍ من المجالات.

لكن الأهم يتمثل في السؤال الأكبر: هل يتعلّم الإسلاميون السوريون، بجميع أطيافهم، من أخطاء تجربة نظرائهم في مصر تحديداً؟ هل يمكن لهم (عملياً) تجاوز ثقافتهم التاريخية التي تؤكّد تماهيهما مع مقتضيات شعورهم بأنهم (رسالة ربانية)؟ ورغم أهمية التصريحات والبيانات في هذا المقام، فإن الممارسات العملية هي وحدها التي تجيب وستجيب عن ذلك السؤال الكبير.

تبغ أهمية السؤال والإجابة عليه من ضرورة صياغة وتقديم خطابٍ وممارسات سياسية تنسجم مع طبيعة المرحلة الراهنة للثورة؛ حيث ظهرت بوضوحٍ أكبر (الروح) الإسلامية فيها، خاصة من حيث شعاراتها ورموزها ومرتكزاتها النفسية والعملية الحالية وتلك المطلوبة للاستمرار والنصر.

ونظراً لطبيعة سوريا مجتمعاً ودولة في الحاضر والمستقبل: فإن هناك حاجةً عمليةً ماسةً لضبطٍ دقيق لكثيرٍ من المفاهيم والطروحات، ولبناء الممارسات السياسية عليها. لا مناص هنا من وجود مراجعاتٍ حقيقةً وعميقةً على المستويين النظري والعملي تتجاوز الاستجابة الآتية لضرورات المرحلة.. والظرف الراهن لا يُعفينَا من المسؤولية وإنما يؤكّد ضرورتها المُلحة؛ لأن هذه العملية وحدها، ووحدتها فقط، يمكن أن تساعد الثورة والمجتمع والدولة (القادمة) على امتلاك توازناتٍ اجتماعية وسياسية حساسة يجب توفرها لحمايتها جميعاً من العنف والحرّوب الأهلية وأي شكلٍ من أشكال الفوضى.

المصدر: أخبار الثورة السورية

المصادر: